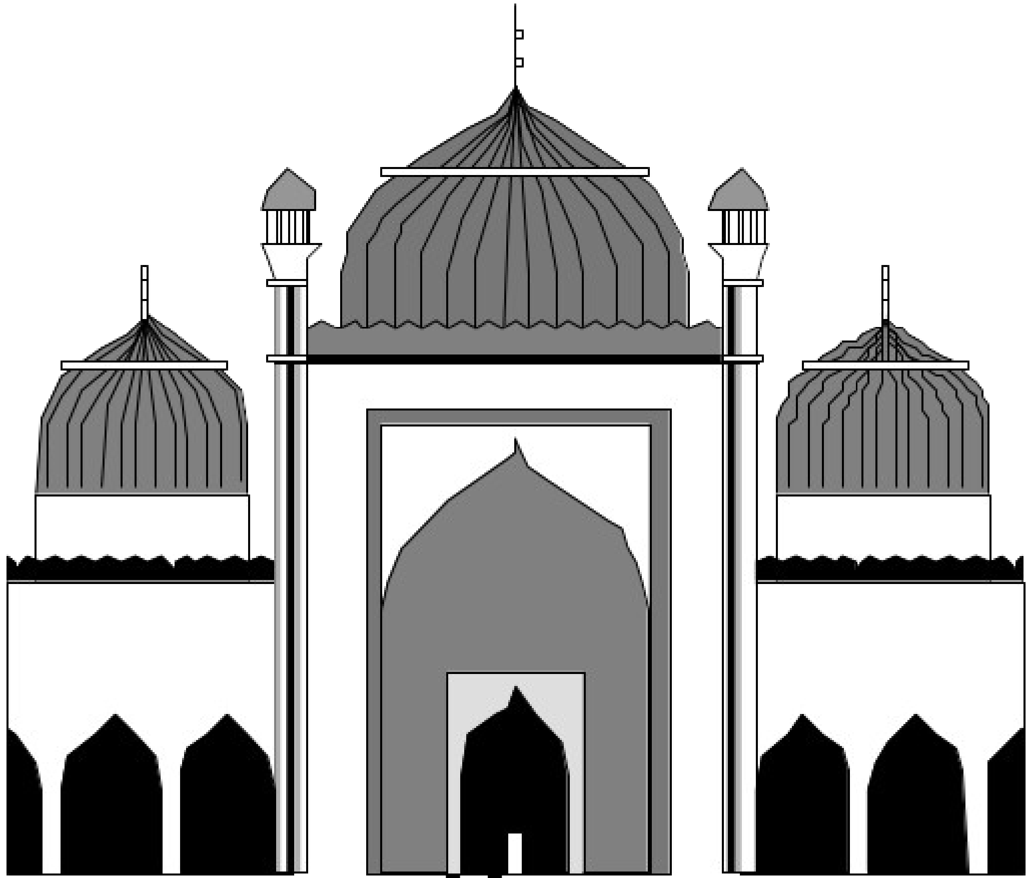
تفسيرٌ ميسَّر لفاتحة الكتاب



فوزي السعيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الْحَمْدَ لله، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيئاتِ أَعْمَالِنَا. مَنْ يَهْدِهِ الله فَلَا مُضِل لَهُ، وَمَنْ

يُضْلِلْ، فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأشْهَدُ أنْ لَا إِلَـٰه إلاَّ اللهُ وَحْـدَهُ لَا شَـرِيكَ لَـهُ، وَأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعلى آله وصـحبه وَسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا. **﴿يا أَيهَا الّذِينَ آمَنُوا اتقُوا اللهَ حَق تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُن إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِـدَةٍ وَخَلَـقَ مِنْهَـا زَوْجَهَـا وَبَثَّ مِنْهُمَـا رِجَـالًا كَثِـيرًا وَنِسَـاءً وَاتَّقُـوا اللَّهَ الَّذِي تَسَـاءَلُونَ بِـهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2]. ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذينَ آمَنُـوا اتَقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَـدِيداً*يُصْـلحْ لَكُم أَعْمَـالَكُمْ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ*وَمَنْ يُطِـعِ اللـهَ وَرَسُـولَهُ فَقَـدْ فَـازَ فَـوْزاً عَظِيماً﴾[3].**

أما بعد: فإن أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ، وبعد:

مقدمة:

تفسـيرٌ مُيسَّـر لفاتحـة الكتـاب أخذتُـه أساسًـا من تفسـير شـيخ الإسلام ابن تيمية لفاتحة الكتاب، وبعضه من تفسير ابن القيم في المدارج، مع إضافة ما يفتح الله به.

والهدف: هو التعاون في إصلاح الأمة التي تقرأ الفاتحة عشـرات المرات يوميًا، والمعاني غائبة.

المرجع الأساسي: هو ما نُشر أخيرًا من تجميعات لأقـوال شـيخ الإسلام ابن تيمية في شرح الآيات التي شرحها من القـرآن وهـو: **"تفسير شيخ الإسـلام ابن تيميـة الجـامع لكلام الإمـام ابن تيمية في التفسير"** جمعه وحققه وعلـق عليـه: إيـاد بن عبـد اللطيف بن إبراهيم القيسي.

ثم قليل من كلام ابن القيم رحمـه اللـه في **المـدارج**، ثم مـا فتح الله به علينا لكي تُيسّر معانيها لكل المصلين.

مقدمةٌ لا بد منها:

[1] **آل عمران: 102.**
[2] **النساء: 1.**
[3] **الأحزاب: 70-71.**

لقد علَّم النبيُّ صلى الله عليه وسلم الرَّجلَ الذي بـدأ يـدعوا اللـه بدون الثناء على الله، علَّمه ألا يعجل، بل يبدأ بالثنـاء على اللـه ثم يُصلي على النبي ثم يدعوا، والحديث:
عن فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْـدٍ صَـاحِبَ رَسُـولِ اللَّهِ صـلى اللـه عليـه وسـلم يَقُولُ: سَـمِعَ رَسُـولُ اللَّهِ صـلى اللـه عليـه وسـلم رَجُلًا يَـدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدْ اللَّهَ تَعَـالَى وَلَمْ يُصَـلِّ عَلَى النَّبِيِّ صـلى اللـه عليـه وسلم فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللـه عليـه وسـلم:"**عَجِلَ هَـذَا**" ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ أَوْ لِغَيْـرِهِ:"**إِذَا صَلَّى أَحَـدُكُمْ فَلْيَبْـدَأْ بِتَمْجِيـدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ**".[4]
- والرسول صلى الله عليه وسلم في المقام المحمود يـوم الـدين يدخل على ربِّه بسجدة مُطولـةٍ تحتَ العـرش ويُعلّمـه ربُّه محامـد لم يكن يُحسنها في الدنيا لتُناسب المقـام، فيظـل مُثنيًـا على ربـه بتلك المحامد حتى يقول له ربُّه: **ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**.[5] والشاهد أنه لم يسـأل ابتـداءًا، بـل أثـنى على ربِّه أولاً مـع السـجود ثم سـأل الشـفاعة العُظمى فأسـتُجيب له.
- وأيضًـا في التشـهد في الصـلاة: يبـدأ المصـلِّي بالثنـاء على ربـه قائلاً: **التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَـاتُ**[6] ثم يُسـلم على النـبي ثم يدعو بالصلاة عليه، وهذا دعـاءٌ عظيم؛ إذ من صـلى عليـه مـرة صلى الله عليه بها عشر مـرات[7]، ولقـد بشّـر الرسـول رجلاً جعـل كل صلاته لرسول اللـه، فقـال لـه:"**إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَـرُ لَـكَ ذَنْبُكَ**"[8]. وأيضًا: **كُلُّ أَمَرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيـهِ بِالْحَمْـدِ لِلَّهِ فهـو أَقْطَعُ**[9]. وإن كان الحديث ضعفه الألباني فالمعنى صحيح.
فكذلك فاتحة الكتاب التي فيها أعظم دعاء وأنفع وأحكمه وأشمله ﴿**اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**﴾ تجـد نصـفها الأول تحميـد وثنـاء وتمجيــد للــه وهــو التوســل الأول ثم التوســل الثــاني بالعبــادة والاسـتعانة وتوحيـده بـذلك ثم الـدعاء. وفي الحـديث الصـحيح

[4] رواه أبو داود والترمذي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (1314).
[5] حديث الشفاعة متفق عليه.
[6] متفق عليه.
[7] رواه أحمد ومسلم.
[8] رواه الترمذي، وحسنه الألباني في الصحيحة (954).
[9] رواه ابن ماجه والبيهقي، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (4216).

المشهور عند كل الأمة: فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **حَمِدَنِي عَبْدِي**. وَإِذَا قَالَ ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: **أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**. وَإِذَا قَالَ ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ قَالَ: **مَجَّدَنِي عَبْدِي**. فَإِذَا قَالَ ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ قَالَ: **هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**. فَإِذَا قَالَ ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ قَالَ: **هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**[10].

وذلك في أول القيام، ثم في آخر القيام بعد الرفع من الركوع قال الرسول صلى الله عليه وسلم في صلاة الليل: **اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءُ الْأَرْضِ وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ**[11].

فهو على نفس نسق الفاتحة تحميدٌ وثناء وتمجيد، **لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ**: فلا يُسأل إلا هو، ولا يُستعان إلا به، وهو تحقيقٌ لقوله ﴿**وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، ثم: **وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ** تحقيقٌ لقوله ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ ومعناها: ولا ينفع ذا الحظوظ الدنيوية من المال والجاه والرياسة وغيرها، حظوظه من الله؛ فلا تُغني عنه من الله شيئًا إلا الإيمان والتقوى.

<u>فأما الحمد:</u> فهو الإخبار بمحاسن المحمود من الصفات والأفعال مع حبه وتعظيمه. والحمد والمدح بينهما اشتقاق أوسط (نفس الحروف مع أختلاف الترتيب)، فإذا كان المدح مقرونًا بحب وتعظيم صار حمدًا، وهو اسم جنس له كمية وكيفية، فإذا أردنا أن: نُعظِّم كميته كررنا ذكر المحامد، وهذا هو الثناء في قولنا ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ والذي ذُكر سابقًا في البسملة، فكأن هذا توسع أفقي في الحمد لإعظام كميته.

فإذا أردنا أن: نُعلي من قدر وشأن كل اسم أو صفة أو فعل قلنا ﴿**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ لأنها تمجيد حيث يقول الله: **مَجَّدَنِي عَبْدِي**، <u>والمجد:</u> هو السَّعة والعلو، فهذا إعظام للكيفية فكأنه توسعُ رأسيٌّ، وهذا والله أعلم يُشبه التسبيح في الركوع بأسمه العظيم، وفي السجود بأسمه الأعلى.

<u>**﴿الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**</u>

[10] **رواه أحمد ومسلم.**
[11] **رواه أحمد ومسلم.**

يحمد الله تعالى نفسه بأسمائه وصفاته وأفعاله كقوله تعالى **﴿الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** ...﴾الأنعام.

وقوله ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾فاطر.

وقوله ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا**﴾الكهف.

وقوله ﴿**فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾الأنعام.

وقوله ﴿**فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾الجاثية.

وقوله ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾سبأ.

وهنا يحمد نفسه في أمِّ الكتاب على ربوبيته للعالمين، و﴿**الْعَالَمِين**﴾ جمع: عالَم، كما يُقال: عالَم الإنس، عالَم الجن، عالَم البحار، عالَم الحيوان، عالَم الأشجار والأزهار، عالَم الأسماك، وهكذا بغير عدٍ ولا حصر.

فكل هذه العوالم الله ربُّها خلقها ودبَّرها وأحكمها وأتقنها وقدَّر لها أقواتها وموتها وحياتها وبداياتها ونهاياتها، خَلَقَ فَسَوَّى وقَدَّرَ فَهَدَى، وكل تفصيل فيها أو مشاهد لطف أو مشاهد رحمة أو مشاهد جمال أو مشاهد حكمة وكرم، كل ذلك يدخل في مشهد الربوبية، وكل ما فيها من حُسنٍ وحمدٍ، فهو حقٌ لله وحده. وهذا هو المراد بالتعريف "بأل" التي تُفيد الاستغراق لجميع المحامد.

* نأخذ مثالاً بعالم الفلك فهو مذهلٌ للغاية: تريليونات من النجوم والكواكب **كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ما ترى فيها من خلل أو تفاوت، ويكفي تأمل حركة الأرض في مجموعتها الشمسية بسرعة 300 كم/ث (ثلاث مائة كيلو متر في الثانية)، وفي ذات الوقت تدور حول الشمس بسرعة 29.6 كم/ث يعني: قُرابة الثلاثين كيلو متر في الثانية، وفي كل ذلك تدور حول نفسها أمام الشمس بسرعة 27 كم/دقيقة، وحول محور دوران مُقدَّر تقديرًا بمنتهى الدقة والأتقان حتى يقوم نظام الحياة عليها كما نعهده.

قال تعالى ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ**﴾الروم. ومن أعجب

ما أتصوره في حياتي أنه: كيف تثبت الأرض في دورانها حول محور لا تتخطاه شيئًا مع حركاتها هذه بسرعات فلكية؟.
إن هذه المجموعة الشمسية هي واحدة من مئات آلاف الملايين من تلك المجموعات في المجرة التي نحن فيها، وهذه المجرة هي واحدة من مئات آلاف الملايين من المجرات في تلك الأفلاك التي هي زينة السماء الدنيا فكم ضخامتها وقدرها؟.
إن السماء الدنيا كحلقة في فلاة في الثانية، والثانية كحلقة في فلاة في الثالثة، والثالثة في الرابعة كذلك، والرابعة في الخامسة كذلك، والخامسة في السادسة كذلك، والسادسة في السابعة كذلك، والسابعة في الكرسيّ كذلك، وكذلك الكرسيّ في العرش، ومن فوق العرش رب العالمين[12].
السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ، وَالْأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما.
ولقد تكرر في القرآن العظيم ذكر **رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**التوبة والمؤمنون والنمل.
قال تعالى **فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ*وَلَهُ الْكِبْرِيَاء فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**الجاثية.
وقال **قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ*سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ*قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ*سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ*قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ*سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ**المؤمنون.
أقسم الله تعالى بِالْخُنَّس الْجَوَارِ الْكُنَّس، وهي مكانس السماء الشافطة العملاقة، النجم الخانس له كثافة تبلغ: 250000 مليون طن للسنتيمتر المكعب حيث يجري في الأفلاك يبتلع نجومًا وكواكب تهالكت وأنتهت أعمارها، حتى إذا بلغ كتلته الحرجة أنفجر إلى مجرة كاملة بها مئات آلاف الملايين من المجوعات الشمسية **كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُون**، الله ربها ورب كل شيء.
* هذه الآية **الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** فيها الأسمان: الله، والرب.
<u>الله:</u> معناه: الإله وهو المألوه الذي تألهه الخلائق والكائنات، وقلوب الأنس والجن وغيرهم.

[12] **الحديث بهذا اللفظ غريب ولايُعرف في كتب السنة المشهورة.**

والتأله هـو الحب المطلـق المقـرون بـالتعظيم والـذل المطلـق والخوف والرجاء وغير ذلك من أعمال القلوب.
والحب المطلق: هو الذي لا يقبل معه آخـر حـتى يكـون تابعًـا لـه، فالمؤمن مثلاً يحب بنيه حبًا تابعًا لحب الله، فإن كانوا محآدين للـه ورسوله أبغضهم وتبرأ من حبهم.
إن الصّديق رضي الله عنه طلب ابنه عبد الرحمن للمبارزة (وكان لا يزال مع المشركين) وبحث عنه ليقتله ليُثبت لله أنه مألوهه لله وحده لا شريك له، وكذلك فعل أبو عُبيدة بن الجراح مع أبيه، وغير ذلك كثير، وهذا هو التأله الصحيح للإله الحق، وهو الذي تحيا به القلوب والروح حياة طيبة في الدنيا والآخرة، وبدون هذه الحياة الطيبة ليس إلا المعيشة الضنك وهي: عذابٌ بئيس يُسلط على القلب والروح يدفع صاحبه إلى الإغراق في الخمر والرقص العنيف، والموسيقى الصاخبة، وأفلام الرعب حتى يتشاغل ويهرب عما يجده من آلام المعيشة الضنك، والأغبياء لا يعلمون أن ضرورتهم لإله الناس أكبر من ضرورتهم لرب الناس كما في آخر سورة في القرآن **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ*مَلِكِ النَّاسِ* إِلَهِ النَّاسِ** والناس –كما يقول ابن القيم- من النَّوس وهو: التذبذب والاضطراب، والذي لا يُذهبه إلى السكينة والطمأنينة إلا التأله الصحيح لإله الحق.
والإنسان مفطور على أنه لا بد له من مُنتهى يطلبه ليس بعده شيء يُطلب ولا غاية تُراد.
ولا يلتذ الإنسان ولا ينشرح ولا يسكن ولا يطمئن إلا بذلك المنتهى الذي هو إلهه، فالزكيّ السعيد إلهه الله. والغبيّ الشقيّ إلهه غير الله.
وجميع الكائنات إلهها الله وحده، تُسبح بحمده، وتُسلم له، وتسجد له وتقنت له، إلا الأغبياء الأشقياء الذين اتخذوا غير الله إلهًا، كالذين عبدُّوا العجل الذي هو غاية في الغباء والبلادة ولا يسمع ولا يُبصر ولا يَرْجِعُ لهم قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، فأدلة نقصه ظاهرة فكيف يكون إلهًا؟ فقال الله تعالى **إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا**طه. له كل الأسماء الحُسنى وصفات الكمال ونعوت الجلال.
وذلك الهدهد قال لسليمان **إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ* وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ* أَلَّا يَسْجُدُوا**

لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ* اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِالنمل، وغير ذلك كثير.

يقول ابن القيم: فعلم أن اسمه الله مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها بالإجمال والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم الله واسم الله دالٌ على كونه مألوهًا معبودًا تألهه الخلائق محبةً وتعظيمًا وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مُستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد وإلهيته وربوبيته ورحمانيته ومُلكه مستلزم لجميع صفات كماله[13].

فذلك المنتهى الذي ينتهي إليه الإنسان تمامًا هو الله عز وجل **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**.

يقول ابن تيمية: فَالِاسْمُ الْأَوَّلُ -الله- يَتَضَمَّنُ غَايَةَ الْعَبْدِ وَمَصِيرَهُ وَمُنْتَهَاهُ وَمَا خُلِقَ لَهُ وَمَا فِيهِ صَلَاحُهُ وَكَمَالُهُ وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ.

الرب: هو الذي يَرُبُّ كل الأشياء وكل العوالم فيدبرها ويتولاها، ويدخل تحته صفات الخلق والرزق والفعل والقُدرة، والتفرد بالعطاء والمنع والضر والنفع، ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة، وكذلك دخول عدد من الأسماء الحُسنى مثل (العليم-الحكيم-القدير-الخلاّق-الرزّاق-السميع-البصير-الشافي-الوكيل-الكافي-الحسيب-المقيت-الحفيظ-الحافظ-البديع-القابض-الباسط-الخبير، وغير ذلك) ولا يخرج شيءٌ في الكون عن ربوبيته، وكلٌّ من في السماوات والأرض عبدٌ له في قبضته وتحت قهره، الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، هو داحي المدحوات، فاطر المسموكات، جبار القلوب على فطراتها، شقيها وسعيدها، تنزل كل كلماته التامات من فوق سبع سماوات فلا يُجاوزهن برٌّ ولا فاجر، وتصدر عنها جميع قلوب الإنس والجن فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ربٌّ أحكم وأتقن كل شيء.

إن نظرة فاحصة لعالم الحيتان في خلقها وفي أرزاقها في المحيطات في حياتها، في حكمة كل خلية فيها في أسرارها .. إن تلك النظرة الفاحصة تُطلعك على بعض جبروت الرب واقتداره، وهكذا في كل العالمين.

إن اسم الرب تكرر ذكره في الكتاب أكثر من تسعمائة وسبعين مرة مُوزَّعة على أقسام الربوبية الثلاثة، وهي:

1- القسم القدّري الكوني (خلق الكائنات وتدبير أمرها).

[13] **مدارج السالكين.**

2- القسم التشريعي (إنزال الكتب، وإرسال الرسل، والتشريعات).
3- القسم الجزائي (في الدنيا والآخرة والثواب والعقاب والسنن الربانية في إهلاك الأمم الظالمة ونصر المؤمنين). وهذا شأنٌ يطول شرحه.

﴿الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ﴾

الرَّحْمـنِ: الذي الرحمةُ وصفه، وصيغة فعلان للسَّعة والشمول، ألا ترى أنهم يقولون: غضبان للمتليء غضبًا، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن مُليء بذلك.
ولهذا يقرن سبحانه استواءه على العرش بهذا الاسم كثيرًا **﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾**طه.
فإذا كان العرش مُحيطاً بالمخلوقات قد وسعها فالرحمة مُحيطة بالخلق واسعة لهم **﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾**الأعراف.
فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات.
وفي الحـديث الصـحيح عَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صـلى اللـه عليـه وسلم قَالَ:"**لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْـقَ كَتَبَ فِي كِتَابِـهِ فَهُـوَ عِنْـدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**"[14].
لو تأملنا سورة الرحمن التي فيها ذكرٌ لأنواعٍ من الرحمة، وعقب كل نوع يقول سبحانه **﴿فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾**الرحمن. ثم ذكر الجِنان ومن دونهما جنتان مع تفصيل لكليهما إلى أن ختم السورة بقوله تعالى **﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾**، وهذا الاسم الذي تبارك هو الرحمن الذي وَسِعت رحمته كُلَّ شيء، لكنها نعمة مُقيدة تزول بزوال العمر ويبقى الحساب عليها، وعلى ذلك فالعبرة بدوام تلك النعم والرحمات فتتصل بها نعيم الآخرة، لأن البركة هي الخير الكثير الدائم الذي ينال فيه المؤمن من عطاء الرحمن دنيا وآخرة.
أما **الرَّحِيم:** فهو الراحم لعباده كما قال تعالى **﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾**الأحزاب. فهذان الاسمان فيهما صفة الرحمة العامة والخاصة، العاجلة والآجلة، في الدنيا والآخرة، ويدخل تحتهما من الأسماء (الغافر-الغفور-الغفار-العفو-البر-التواب-المحسن-الكريم-الرءوف-الواسع-الجواد-اللطيف-الحنَّان-المنَّان، وغير ذلك).
فهذه الآية **﴿الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ﴾** فيها ذكر الرحمة الكثيرة المنتشرة المتكررة في الكائنات التي لا تدخل تحت الحصر أبدًا،

---

[14] **متفق عليه.**

وفي كل جزئية منها يُحمد عليها الرحمن فيستحق عليها الحمد ومن ثمَّ نجد أن العبد إذا قرأها فاهمًا لها، أولا تلاها حق تلاوتها، قال له ربه "**أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي**" لأن فيها من تكرار المحامد ما لا يتناهى.

تأمل قوله تعالى **وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ**الشورى. فكم أخرج الله بهذا الغيث من الزروع والنخيل والأشجار والنباتات مما يأكل الناس والأنعام؟، وكم شرب الناس والدواب والأنعام؟، وكم جرت السفن؟،وكم وكم بلا حصر **وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ**.

وتأمل قوله تعالى **وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ* إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**البقرة. تجد كل مشاهد الربوبية المذكورة قد أقترن ذكرها بذكر **الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ** كما نجد ذلك في الفاتحة في اقتران الرحمة بالربوبية **رَبِّ الْعَالَمِينَ*الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ** كما قرن استواءه على العرش برحمته **الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** فإن شمول الربوبية وسعتها لا يخرج عنها شيء، قد أقترن بشمول الرحمة التي وسعت كل شيء، فوسع كل شيء بربوبيته ورحمته، وهذا الكلام موجود بتفصيل في المدارج لابن القيم رحمه الله.

وهنا نذكر الرحمة بالإلهية والربوبية، فذكر في الآية الأولى: (الله- الرب) وفي الآية الثانية: (الرحمن). وهذه الأسماء الثلاثة: هي **<u>أصول الأسماء الحُسنى:</u>**

<u>فالإلهية</u> (الله) تكون من العبد إلى ربه، **<u>والربوبية</u>** تكون من الرب إلى عبده، والرحمة هي التعلق والسبب الذي بين الله وبين عبده، وبها يكون كمال التعلقين (الربوبية والإلهية) وبها أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، وبها هداهم، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، وبها أسكنهم دار ثوابه.

هذه الفاتحة هي أم الكتاب، فنستطيع أن نحد عنها إلى أي معنى أو آية من الكتاب، وأضرب لذلك مثلين:

1- من سورة الرعد يقول ربنا **كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ**

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِالرعد. فذكر الأسماء الثلاثة: الرحمن – الرب – الإله. كما في الفاتحة مع أختلاف الترتيب. ثم ذكر قوله تعالى **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَاب** مثل قوله تعالى **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**.

2- من سورة التغابن قال **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** كما في الفاتحة: **الْحَمْدُ للّه– مَـلِكِ يَوْمِ الدِّين**، فله الملك وله الحمد.

مَالِكِ يَوْمِ الدِّين والقراءة الثانية **مَـلِكِ يَوْمِ الدِّين**

المالك: هو الذي يتصرف في مُلكه بفعله وليس بأمره.

الملك: هو الذي يتصرف في مُلكه بأمره وليس بفعله.

وِيَوْمِ الدِّين: هو يوم مملكة الأسماء الحسنى، ولا يدّعى أحدٌ فيه أن له نصيبًا من الملك **يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**الإنفطار. والملك الكامل يتضمن القدرة الكاملة. كما أن تمام الرحمة في إرادة الإحسان، فإذا اجتمعت إرادة الإحسان مع القدرة الكاملة كان منهما الخير الكامل في الدنيا والآخرة (الرحمن-الرحيم-الملك).

وِيَوْمِ الدِّين: هو اليوم الذي يدين الله العباد بأعمالهم إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر. وهو يومٌ عظيم يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِين، وهو اليوم الأعظم، وما سبقه كساعة من نهار، وما أيام الدنيا إلا مراحل إليه، **وِمَا الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِى الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ**؟[15].

إنه خمسون ألف سنة، منها خمسة وعشرون ألف سنة "**فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا» وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ**[16].

ومشكلة الناس الآن أنهم لا يتصورون هذه الأخبار والحقائق، ومن تصورها منهم حسِب نفسه من المؤمنين حقًا الذين يُهون الله عليهم هذا الموعود فيجعله كتدلي الشمس للغروب.

إن نار جهنم أشد حرًا ويكون فيها احتراق الجلود وتبدله غيرها، قال تعالى **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ إِنَّ**

[15] **رواه أحمد ومسلم.**

[16] **رواه أحمد ومسلم والترمذي.**

اللّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًاالنساء، وقال **إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ*طَعَامُ الْأَثِيمِ*كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ*كَغَلْيِ الْحَمِيمِ*خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاء الْجَحِيمِ*ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ*ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**الدخان، وفي الحديث قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم "**لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنْ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ**"[17].

وقال تعالى **فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا*السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا**المزمل. وقال **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ*يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ**الحج. وأهل الجنة في يوم المزيد في لقاء ربهم ينظرون إله فيزدادوا جمال تعرفه الزوجة في وجه زوجها، والزوج في وجه امرأته، ذلك بأن الله له الكمال في الجمال، فبمجرد نظر المخلوق إليه يزداد جمالاً، وهكذا الكمال في كل أسماء الله يظهر في يوم مملكتها.

ثم كيف البعث والنشور لنرى شيئًا من جبروت الله واقتداره: تريليونات من البشر، وأمثالهم أو أكثر من الجن، وأمثالهم أو أكثر من الوحوش والدواب والأنعام والطير والزواحف وجميع الأمم من جميع الأنواع، قال تعالى **وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ**التكوير. وقال **وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**الأنعام.

- إن نعجةً قرناء نطحت أختها الجماء (بغير قرون) ثم ذُبحت كلاهما وأُكلت وهُضمت، ثم في هذا اليوم قد بُعثتا بتبديل الحال في القرون لتنطح الجماء كما نطحتها في الدنيا، ثم يقول لها الملك: كوني ترابًا، فتكون ترابًا، وعندها يقول الكافر **يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا**النبأ. كم نعجة كانت على الأرض في كل أيام الدنيا وكم نَطحت ونُطحت؟ وكيف سُجلت نطحاتها؟ وكيف حُفظت؟ ثم كيف بُعثت؟

---

[17] **رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (5250).**

والإجابة معلومة، إنه سبحانه له الكمال في العزة والحكمة والقدرة على كل شيء قدير حفيظ حسيب مقيت وكيل رقيب شهيد ... وهكذا.
إنَّ السَّبُع يفترس فريسته ويستطيع أن يأكلها وهي حيَّة لكنه مأذون له فقط أن يقتلها خنقًا حيث ينقطع الدم عن المخ، فتفقد الإحساس فلا تتعذب إلا للحظات قليلة، وما نراه من تشنجات ما هي إلا انقباض وانبساط العضلات حتى تُرسل الدم إلى المخ وذلك بإشارة منه، ليس لأنها تتعذب أو تتألم.
السؤال: ماذا لو بدأ بأكل منها قبل قتلها؟ الجواب: **وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ**التكوير.
وأمر الإنسان أعجب، تصور أسرة واحدة كم كان بينهم من حسنات وسيئات، وبرّ وعقوق، وإيثار وأثرة وخائنة أعين، وبخل وكرم، وصلة وقطيعة، وكيف كان تعاملات كل فرد مع أرحامه وجيرانه، وباقي الناس، وكيف وكيف وكيف؟ والأعجب أن كل ما عملوه ما هو إلا نسخة مما هو مُقدر عند الله في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى **إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**الجاثية، إن حساب مثل تلك الأسرة يحتاج إلى دولة قوية بكل أجهزتها الحديثة بزمنٍ لا ينحصر مع العجز في معرفة خائنة الأعين والنوايا والظروف والدوافع، وسيكون الظلم أقرب من العدل كما يمتنع الحصر الكامل للأعمال وحفظها فكيف بكل البشر على كل الأرض في كل أيام الدنيا؟ لا يمكن ذلك إلا لمن له الكمال في أسمائه وصفاته سبحانه.
وبالتالي إذا قلت **مَـلِكِ يَوْمِ الدِّينِ** فقد ذكرت من سعة ملكه وأسمائه وصفاته وعلوها وهو الأعلى سبحانه، وقال لك ربك "**مَجَّدَنِي عَبْدِي**" لأن المجد هو السعة والعلو فتكون قد حمدته وأثنيت عليه ومجدته، وبذلك تكون توسلت إليه بين يدي سؤالك بأعظم مطلوب في حياتك، والذي فيه خير الدنيا والآخرة، والذي يستحق التوسل إليه بالوسيلة الثانية وهي عبادته سبحانه **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ويكون لسان حالك قائلاً: ذكرتك فعرفتك فأحببتك فتألهتك فعبدتك، ولو كنت صادقًا في قراءة الآيات مستحضرًا لمعانيها **الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ* مَـلِكِ يَوْمِ الدِّينِ** لوجدت نفسك مستسلمًا له تمامًا وأنت تقول **إِيَّاكَ نَعْبُدُ**.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

تقديم ذكر المعبود **إِيَّاك** على الفعل **نَعْبُد** فيه فائدتان:

1- شعور القلب بذكر الله المعبود المتقرب إليه قبل شعوره بالعبادة التي هي وسيلة إليه، والشعور به يقتضي معرفته ومحبته، فتكون معرفته ومحبته سابقة في القلب لعبادته، وهذا أنفع ما يكون في العبادة، وهو الترتيب الفطري بخلاف من شعر بالوسيلة قبل المقصود.
2- الحصر: كأنه قال لا أعبد إلا إياك. ابن تيمية.

يقول ابن القيم في تهذيب المدارج:

وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب أنتهى إلى هاتين الكلمتين، وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين، فنصفهما له تعالى وهو ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ ونصفهما لعبده وهو ﴿**إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾.

والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول طريق مُعبَّد أي: مُذلل، والتعبُّد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدًا له، حتى تكون مُحبًا خاضعًا.

والإستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله والإعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لإستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به.

وتقديم العبادة على الإستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل؛ إذ العبادة غاية العباد التي خُلقوا لها والإستعانة وسيلة إليها، ولأن إياك نعبد متعلق بألوهيته واسمه (الله) و﴿**إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ متعلق بربوبيته واسمه (الرب) فقدم ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ على ﴿**إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ كما قدم اسم (الله) على (الرب) في أول السورة ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ ولأن ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ قسم الرب فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى لكونه أولى به و﴿**إِيَّاكَ نَسْتَعِين**﴾ قسم العبد، فكان من الشطر الذي له (العبد) وهو ﴿**اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**﴾ إلى آخر السورة.

ولأن الإستعانة جزء من العبادة من غير عكس، ولأن الإستعانة طلب منه والعبادة طلب له، ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، والإستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص، ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك، والإستعانة طلب العون على العبادة، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته، ولأن العبادة شكر نعمته عليك والله يحب أن يُشكر،

والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته ودخلت تحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببًا لنيل الإعانة.
وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم، وهذان الأصلان "العبادة والإستعانة" أمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ:"**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ**" الحديث[18]. أ.هـ.
وأنفع ما للعبد هو: طاعة الله ورسوله، وهي العبادة، فأمر بعبادة الله وبالإستعانة به، وحذَّر من العجز في العبادة ومن العجز في الإستعانة، ومن أخطر أمراض العصر: العجز في الإستعانة، حيث أصبحت أستعانة الناس مجرد كلام باللسان لم يصدر عن اعتقاد راسخ بأن الله خالق أفعال العباد، وأن الله إن لم يُعن العبد على الفعل فلن يكون الفعل أبدًا كما في الحديث "**فَإِنَّ اللهَ إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ, لَمْ يَتَيَسَّرْ**"[19]. ومن المعلوم أن الله يُحدث ما يختاره العبد.
فأصبح الناس حالهم قدريًا -وهم الْقَدَرِيَّة الْنُّفَاة الذين يقولون لا قدر في أفعال العباد- فهم عجزة عند الفعل، وأشد الناس جزعًا عند المصيبة.
والتوكل أيضًا إظهار العجز في الأمر والأعتماد على الله فيه، قال تعالى ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾الزمر. إذ جميع الأشياء والأسباب خُلقت عاجزة عن استلزام الأثر حتى يأذن الله عز وجل، لأن بها وَكَالٌ، وهو: العجز والبطء والضعف والبلادة، والوكيل سبحانه هو الذي ينزع هذا الوكال لتتم السببية ويحدث الـمُسبَّب، ولهذا ثنى الله ذكر هذين الأصلين في الكتاب:
قال تعالى ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ وقال ﴿**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾هود، الشورى.
والإنابة: تكرار العبادة والرجوع السريع إلى الله. وقال ﴿**وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ هود. وقال ﴿**رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾الممتحنة. وقال ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا*رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**

[18] **رواه مسلم.**
[19] **موقوفٌ على عائشة بسند حسن، أخرجه ابن السني، وأبو يعلى في مسنده، وحسنه الألباني.**

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًاالمزمل. وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نجح في أن يتخذ (على مدى الأنفاس) ربَّه وكيلاً، فما من شيءٍ أُمر به إلا توجه إلى الله فيه ليوفقه ويُحدثه له حتى سماه ربه "المتوكل"، ونجح في كل ما أُمر به حتى نال سيادة البشر، والوسيلة والفضيلة والمقام المحمود، وغير ذلك من فضائله صلى الله عليه وسلم، لقد أُمر بالشكر **وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ** فقال "**رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا**"[20]. "**أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ**"[21]. "**أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ**"[22].

وأُمر بالحج فقال "**اللَّهُمَّ حَجَّةٌ لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةَ**"[23]. وهكذا في جميع ما أُمر به.

وقال عز وجل **وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**الرعد. وهذه الآية كما سبق فيها الأسماء الثلاثة: الرحمن-الرب-الإله (الله) مع أختلاف الترتيب عن الفاتحة، ثم ذكر الأصلين: التوكل والتوب وهما: كالاستعانة والعبادة.

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** وهنا نذكر ما علمه الرسول صلى الله عليه وسلم لحِبه مُعَاذِ بْنِ جَبَل فقال "**يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ : لَا تَدَعَنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولُ: اَللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**"[24]. فأنفع الدعاء طلب العون من مرضاته سبحانه.

ولذلك نجد أهل السنة أصحاب الأعتقاد الصحيح عندما يقولون **وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** إنما يقولونها بتضرع، فلا يقعون في العُجب الذي هو: إشراكٌ بالنفس، كما لا يقعون في الإشراك بالخلق، وهو الرياء، بل إخلاص في **إِيَّاكَ نَعْبُد** وإخلاص في **وإِيَّاكَ نَسْتَعِين** إذ كان العمل لا يكون إلا بإحداث الله له، فكيف يُستعان بغيره؟، وكيف يُظنُّ بأن النفس تستقلُّ بعملها فلا تحتاج إلى عون الله، نعوذ بالله من الخذلان. وهنا نقف وقفة لازمة

---

[20] **رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة برقم (3830).**

[21] **رواه أحمد وأبو داود والنسائي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (1362).**

[22] **رواه الطبراني في الكبير.**

[23] **رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (1302).**

[24] **رواه أحمد وأبو داود والنسائي، وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم (1362).**

نوضح فيها مسألة القدّر في الأفعال، وأنـه لا مثقـال ذرة من ظلم في هذا -حاشـا للـه-، يهـدي من يشـاء برحمتـه، ويُضـل من يشـاء بعدله، وكل ما يفعله الإنسان إنما يفعله بكسـبه وإختيـاره وإرادتـه مع خلق الله للأفعال ولا تعارض بين الأمرين، وضلت طائفتان في ذلك ضلالاً بعيدًا، طائفة الجبرية الذين يقولون: إن الإنسـان مُجبَـرٌ في عملـه؛ كالريشـة في مهب الـريح، فلا إرادة لـه ولا أختيـار ولا كسب، وطائفة الْقَدَرِيَّة النُّفَاة الذين يقولون: إن الإنسان لا يفتقــر إلى الله في الإهتداء، والأعمال، بل عنده ما يهتـدي بـه ومـا يضـل به.

فأما الطائفة الأولى (الجبريـة) فقـد حسـبوا أن الإنسـان كالآلـة لا دخل لها فيما يُفعل بها كالسكين في يد الطباخ، أو كالكمبيوتر في يد من يستعمله، والرد عليهم سهل، وهـو أن الآلـة لا مشـيئة لهـا، فلا يستطيع الكمبيوتر أن يقول لمسـتخدمه: سـأفعل مـا تريـد، ثم يُغير قراره فيقول له: لن أفعل لك شيئًا، لأنه آلة! بخلاف الإنسـان الذي له مشيئة بها يختار الموافقة أو يختار الرفض، وبها يرجع في رأيه أوْ لا، وهذه المشيئة لا يقدر على خلقهـا وصـنعها إلا اللـه عـز وجل، وفيها يقول ابن تيمية -غفر الله له- في قصيدته التائية:

وَمِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ خَلْقُ مَشِيئَةٍ * * * بِهَا صَارَ مُخْتَارَ الْهُدَى بِالضَّلَالَةِ [25].

فقياس الإنسان بالآلة عمى وضلال بعيد وقعت فيه تلـك الطائفـة، أما الطائفة الأخرى وهم الْقَدَرِيَّة النُّفَاة أو المعتزلة الذين يعتقدون أن الإنسان مستقلٌ بفعلـه، وليس للـه فعـلٌ فيـه، ويسـمون ذلـك عدلاً، وهذا أيضًا ضلالٌ بعيد.

كلا الطائفتين لم يَسـتَطيعَا الجمـع بين الشـرع (فعـل العبـد) وبين القدّر (فعـل اللـه) مـع أن ذلـك مسـتقر في الـدين تمامًـا، كقولـه تعالى ﴿**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْـرِ** ...﴾يـونس. فالعبـد هو السائر، واللـه هـو المسـير، وقولـه ﴿**يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُـواْ بِـالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَفِي الآخِـرَة** ...﴾إبـراهيم. فالعبـد هـو الثـابت، واللـه هـو المثبت، وكـذلك قولـه ﴿**وَلَـوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَـرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَـيْئًا قَلِيلاً**﴾الإسـراء. والقـرآن كله مملوء من هذا وكذلك في السنة، فما من شيء في الـدين إلا سأل الرسول ربَّه فيـه فهـو يسـأل فعـل اللـه مـع فعلـه، وإلا فلن يكون الشيء من فعله.

وهو من يُقسم في غزوة الخندق قائلاً:

---

[25] **مجموع الفتاوى.**

وَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا * وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا**
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا * وَثَبِّتْ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا**
إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا * إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا** [26]

وهذا خليل الله إبراهيم يقول ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي**﴾إبراهيم. ويقول ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ**﴾البقرة.

وسليمان عليه السلام يقول ﴿**فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ**﴾النمل. وقال تعالى عن عباده الصالحين ﴿**حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾الأحقاف.

ومعنى أَوْزِعْنِي ثلاثة أشياء، كما يقول ابن القيم في شفاء العليل:

أولاً: ألهمني، أو: اجعل فيَّ شُكرك. ثانيًا: اجعلني مغرىً به. (فأحبه ولا أستغنى عنه).

ثالثًا: كُفنَّي عما سواه. (فلا أنشغل بغير شكرك).

وابن القيم رحمه الله ذكر مئات الأدلة على ذلك في كتابه العظيم (شفاء العليل) ولكني لا أستطيع أن أتوسع أكثر من هذا، بل أكتفي بسورة الشمس حيث أقسم المولى عز وجل على هذه القضية أحد عشر مرة بما لم يرد مثله في الكتاب:

﴿**1وَالشَّمْسِ 2وَضُحَاهَا*3وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا*4وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا*5وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا*6وَالسَّمَاء 7وَمَا بَنَاهَا*8وَالْأَرْضِ 9وَمَا طَحَاهَا*10وَنَفْسٍ 11وَمَا سَوَّاهَا*فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا*قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾الشمس.

فأقسم عز وجل بهذه المخلوقات العظيمة، إلى أن أقسم ببانى السماء وطاحي الأرض وسوى النفس التي يجتمع فيه الأمران: فعل الله، في قوله ﴿**فَأَلْهَمَهَا**﴾ وفعل النفس في قوله ﴿**فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾ يعني فجورها هي، وتقواها هي، والمقسم عليه يؤكد فعل النفس ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ فالتزكية والتدسية فعلهما، فاجتمع الأمران: فعل الله وفعل العبد، أي القدر والشرع بلا تناقض.

وأهل السنة جمعوا بين ما جمع الله بينه فصاروا مفتقرين ضرورة إلى فعل الله في كل عمل صالح يعملونه أمرًا ونهيًا، ودفعهم

---

[26] **متفق عليه.**

أفتقارهم هذا إلى الإستعانة الضارعة الحــق، وإلى التوكـل الحــق، وإلى الأسـتعاذة الحـق، وإلى الأعتصـام الحـق، فـأفلحوا وسـادوا الـدنيا قرونًـا كثـيرة بخلاف أهـل البـدع الضـالين لا سـيما هـؤلاء الْقَدَرِيَّة النُّفَاة الذين لا تجد في قلوبهم شيئًا من الأفتقار إلى عون الله في الدين، وإنمـا أسـتعانتهم وتـوكلهم واسـتعاذتهم تكـون في الأعمــال الدنيويــة فقــط، وذلــك موجــود عنــد الجميــع مؤمــنين وكافرين.

وللأسف الشديد فإن حال الأمة الآن في الغالب هـو حـال الْقَدَرِيَّة وإن لم يعتقدوا معتقدهم، ومثال ذلك في قـول المصـلين **وإِيَّاكَ نَسْـتَعِين** بلا افتقـار إلى عـون اللـه في إقـام الصـلاة أي: في إحـداث صـلاة خاشـعة ناجعـة ناجحـة، كقولـه تعـالى **وَيَخِـرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا**الأسراء.

والسبب أنه غاب عنهم المعتقد الصحيح لأهل السنة والجماعة في ضرورة أنضمام فعل الله إلى فعل العبد حتى يخرج العمل صالحًا، وهؤلاء من عامة الأمة في طلبهم لدنياهم تجدهم مستعينين باللــه متوكلين عليه لكن في الدين فلا، وأنظر إلى صلاة الناس في هـذا الزمان: هـل تجـد خشـوع؟ وهـل تجـد من تغـير في الأحـوال بعـد الصـلاة؟ للأسـف: لا تجـد، بـل أحوالـه بعـد الصـلاة كمـا هي قبـل الصلاة، فأين أثر الصلاة!

لكن عنـدما يُصَـحَّحُ الأعتقـاد سـتجد -بـإذن اللـه- أسـتعانة حقيقيـة وصلاة حقيقية وتدينًا حقيقيًا.

نعود الآن إلى قوله **اهدِنَـــا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**.

قارىء الفاتحة توسل إلى الله بالوسيلتين:

<u>الأولى:</u> الحمــد والثنــاء والتمجيــد. <u>والثانيــة:</u> عبادتــه وتوحيــده واستعانته.

وهاتــان الوســيلتان بين يــديّ الــدعاء الأنفــع والأعظم والأجمــع والأشمل لخيريَّ الدنيا والآخرة، والعبد يحتـاج إليـه ضـرورة، فكـل عبد مضطر إلى مقصوده؛ إذ لا نجـاة من العـذاب إلا بـه، ولا فـوز بالسعادة إلا به، والمقصود: الهداية إلى الصـراط المسـتقيم، فمن فاته هذا الهُدى فهو إما من المغضوب عليهم أو من الضآلين، قال تعالى **مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْـلِلْ فَلَن تَجِـدَ لَـهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا**الكهف. والمطلوب هـو الهُـدى الخـاص التـام الـذي يحصل معـه الأهتـداء، وهي: الهدايـة الخاصـة الـتي خصَّ اللـه بهـا المهتدين، وهنا لا بد أن نتصور ما هو الصراط المستقيم المطلوب الهداية إليه:-

تعريفه لغةً: هو الطريق المحدود بجنبتين (فلا يُخرج عنه) المعتدل الذي يصل سالكه إلى مقصوده بسرعة.
ويُقال: أصله من سرطت الشيء أَسْرطُهُ سَرطًا إذا ابتلعته واسترطته: ابتلعته، فإن المبتَلَعَ يجري بسرعة في مجرى محدود.
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَوْماً خَطًّا ثُمَّ قَالَ:«**هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ**». ثُمَّ خَطَّ خُطُوطاً عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ:«**هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**». ثُمَّ تَلاَ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**[27].
وفي حديث النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الأَنْصَارِىِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ:«**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً صِرَاطاً مُسْتَقِيماً، وَعَلَى جَنْبَتَىِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعاً، وَلاَ تَتَفَرَّجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُفْتَحَ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ**(ذلك الواعظ): **وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ: الإِسْلاَمُ، وَالسُّورَانِ: حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ: مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ الدَّاعِى عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالدَّاعِى مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللَّهِ فِى قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ**»[28].
والكلام على هذه الآية وما سبق من الفاتحة أخذتُه أساسًا من كلام ابن تيمية في التفسير المجموع الذي نُشر مؤخرًا مع التصرف في الترتيب والتقديم والتأخير وإضافة ما يفتح الله.
قال رحمه الله: الصراط المستقيم أن تفعل في كل وقت ما أُمرت به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا تفعل ما نُهيت عنه، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة جازمة لترك المحظور. وهذا العلم المفصل والإرادة المفصلة لا يُتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد، بل في كل وقت يحتاج أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يُهدى به في ذلك الوقت، نعم حصل له هدى مجمل، فإن القرآن حق، ودين الإسلام حق، والرسول، ونحو ذلك، ولكن هذا الهدى المجمل لا يعينه إن لم يحصل له هدى مفصل في كل ما يأتيه ويدبره من الجزئيات التي

[27] **رواه أحمد وابن ماجه، وصححه الألباني في ظلال الجنة برقم (16).**
[28] **رواه أحمد والترمذي والنسائي والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (3887).**

يحار في كثيرٍ منها أكثر عقـول الخلـق ويغلب الهـوى أكـثر الخلـق لغلبة الشبهات والشهوات على النفوس.
والإنسان خُلق ظلومًا جهولاً، فالأصل فيه عدم العلم وميله إلى ما يهـواه من الشـر فيحتـاج دائمًـا إلى علِم مُفصـل يـزول بـه جهلـه، وعدل في محبته وبغضه ورضاه وغضـبه، وفعلـه وتركـه، وإعطائـه ومنعه، وكل ما يقوله ويعمله يحتـاج فيـه إلى عـدل ينـافي ظلمـه، فإن لم يمن الله عليه بالعلم المفصل، والعدل المفصل، وإلا كـان فيه من الجهل والظلم ما يخرج به عن الصـراط المسـتقيم، وقـد قال تعالى لنبيه بعد صُلح الحدُيبية وبيعة الرضوان ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَـكَ فَتْحًا مُّبِينًا*لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَـأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْـتَقِيمًا*وَيَنصُـرَكَ اللَّهُ نَصْـرًا عَزِيزًا**﴾الفتح. فأخبر أنه فعل هذا ليهديـه صـراطًا مسـتقيمًا، فـإذا كان هذا حاله -عليه السلام- فكيف حال غيره؟ أ.هـ
قلتُ: لا بد من توضيح لهذا الكلام حتى يستطيع كل مسـلم إنزالـه في واقعه وجميع جزئيات حياته، ويُـدرك مـدى أفتقـاره الضـروري إلى ربـه في هدايتـه إلى الصـراط المسـتقيم، وسنضـرب لـذلك أمثلة:
<u>أولاً:</u> كان رَسُول اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ يـدعو في اسـتفتاح الصلاة:
"وَاهْدِنِي لِأَحْسَـنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْـدِي لِأَحْسَـنِهَا إِلَّا أَنْتَ وَاصْـرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ"[29].
فما هو أحسن الأخلاق؟ وما هو سيئُها؟ وما معـنى قولـه "لَا يَهْـدِي لِأَحْسَـنِهَا إِلَّا أَنْتَ" فخـذ مثـالاً سـهلاً على ذلـك: فخُلُـقُ الشـجاعة: الشجاعة خُلُقٌ حميد، وهو وسطٌ بين خُلُقين ذميمين، وهما: التهور والجُبن، وحدًّا الشجاعة: الإقدام في موضع الإقدام، والإحجـام في موضـع الإحجـام؛ والإنحـراف عنـه يكـون إمـا إلى التهـور -وبين الشجاعة والتهور مئـات الـدرجات من الأخلاق-، وإمـا إلى الجبن -وبين الشجاعة والجبن مئات الدرجات من الأخلاق-.
فهبْ أيُها القارىء أن لك جار سـوء شَـكِس شَـرِس، وشـبَّ بينـك وبينه خصومة، فهل تتجه إلى الجُبن فيطمع ويركب، ويُهينـك أمـام امرأتك وعيالك، فتعيش بجواره ذليلاً بلا كرامـة، أم هـل تتجـه إلى التهور بلا تحسب للنتائج، وقد تكون العواقب وخيمة جـدًا (قتـلٌ أو تـدمير)، أم تلـتزم بمواضـع الشـجاعة وهـو: الإقـدام في موضـع

[29] **رواه مسلم.**

الإقدام، والإحجام بمواضع الإحجام، وتستعد لمواجهته بالمعين والنصير.
هب أن عشرة من الناس وكل منهم له مثل هذا الجار، وانظر في تصرف كلٍّ منهم ستجد اختلافًا كثيرًا، لأن كل منهم ينطلق بحسب ما عنده من هذه الأخلاق (الشجاعة - التهور- الجبن) فأما الذي هُدي لأحسن الأخلاق فهو الذي يُقدر الموقف تقديرًا جيدًا، ويعلم ما أحل الله وندب إليه ورغَّب فيه، وما حرَّم الله وحذَّر منه، ورهبَّ منه، ويعلم مواضع الإقدام ومواضع الإحجام، ويستعين بالله استعانة حقيقية ويستخير ربه في كل شيء، فتجد أموره مستقيمة على الشرع، عنده فرقان يُفرّق به بين الخطأ والصواب كما قال تعالى ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ...** ﴾ الأنفال، وقد رُزق الحياة الطيبة كما قال تعالى ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ...** ﴾ النحل، بل قد نال البر كما قال رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ"[30] فمن يقدر على هدايته علمًا وعملاً في مثل هذه الظروف إلا الله سبحانه.
وما يُقال في الأخلاق يُقال في الأعمال، ويُقال في الأمر والنهيّ، وتظهر ضرورتك إلى هدايتك إلى الصراط المستقيم، وإلى أن تكون ضارعًا إلى ربك عند قولك ﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**﴾.
<u>ثانيًا:</u> بقيت كلمة يسيرة عن الأخلاق ومعناها:
الأخلاق: هي الصفات الراسخة في الإنسان التي يتعامل بها مع غيره، ولا تزال تظهر آثارها مع الوقائع والأحداث المختلفة مثل الشجاعة والتهور والجُبن، والصبر وقسوة القلب والهلع، والجود والتبذير والبخل، والحلم والطيش والأناة والعجلة ... إلخ.
فكأن هذه الصفات مخلوقة مع الإنسان لا تفارقه، ومن ثمَّ أُطلق على الصفة الراسخة: كلمة خُلُق، حيث بينها وبين كلمة خَلْق: أشتقاق أصغر. كما أن الإنسان يستطيع أن يكتسب بالتدريبات الرياضية عضلات مفتولة مخلوقة، فكذلك يستطيع الإنسان أن يكتسب بالخُلُق والتكلف أخلاقًا حتى تصير سجيةً ومَلَكة.
وفي الحديث الصحيح قال أَشَجِّ عَبْدِ الْقَيْسِ: قال رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:«إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولُهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ». فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقَدِيماً فِىَّ أَوْ جَبَلَنِى

[30] **رواه مسلم.**

اللَّهُ عَلَيْهِمَا؟ قَالَ «بَلْ جَبَلَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا». قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى جَبَلَنِى عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ.[31]
ويمكن أكتساب الأخلاق بالهمة العالية وتكلف الخُلُق والأستعانة بالله كما جاء في حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ ..." [32] ويعمُّ كل ذلك دعاءُ الفاتحة **اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ**.

<u>كروكي لتوضيح معنى الفاتحة</u>

اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ: خير الدنيا والآخرة

التحميد - الثناء - التمجيد
الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ*مَـلِكِ يَوْمِ الدِّينِ

ذكرٌ فمحبة فتأله فعبادة

التوحيد: عبادة واستعانة
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

<u>وقال رحمه الله بتصرف:</u> وهذ الدعاء هو أَنْفَعُ الدُّعَاءِ وَأَعْظَمُهُ وَأَحْكَمُهُ، فَإِنَّهُ إذَا هَدَاهُ هَذَا الصِّرَاطَ: أَعَانَهُ عَلَى طَاعَتِهِ وَتَرْكِ مَعْصِيَتِهِ. فَلَمْ يُصِبْهُ شَرٌّ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ. والذُّنُوبَ مِنْ لَوَازِمِ نَفْسِ الْإِنْسَانِ. وَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى الْهُدَى فِي كُلِّ لَحْظَةٍ أَحْوَجُ مِنْهُ إلَى الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ. ويدخل في ذلك ما لا يمكن إحصاؤه. ولهذا أمر به في كل صلاة لفرط الحاجة إليه، وَإِنَّمَا يَعْرِفُ بَعْضَ قَدْرِ هَذَا الدُّعَاءِ مَنْ اعْتَبَرَ أَحْوَالَ نَفْسِهِ وَنُفُوسِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَأْمُورِينَ بِهَذَا الدُّعَاءِ. وَرَأَى مَا فِي النُّفُوسِ مِنْ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ الَّذِي يَقْتَضِي شَقَاءَهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. فَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ -

[31] **رواه مسلم.**
[32] **متفق عليه.**

بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ - جَعَلَ هَـذَا الـدُّعَاءَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْـبَابِ الْمُقْتَضِـيَةِ لِلْخَيْرِ الْمَانِعَةِ مِنْ الشَّرِّ. أ.هـ

وقال رحمه الله:

وَلَمَّا كَانَ الْعَبْدُ فِي كُلِّ حَالٍ مُفْتَقِرًا إلَى هَذِهِ الْهِدَايَةِ فِي جَمِيعِ مَا يَأْتِيهِ وَيَذَرُهُ مِنْ:

- أُمُورٍ قَدْ أَتَاهَا عَلَى غَيْرِ الْهِدَايَةِ، فَهُوَ يَحْتَاجُ إلَى التَّوْبَةِ مِنْهَا.
- وَأُمُورٍ هُدِيَ إلَى أَصْلِهَا دُونَ تَفْصِيلِهَا، أَوْ هُدِيَ إلَيْهَا مِنْ وَجْـهٍ فَهُـوَ مُحْتَاجٌ إلَى تَمَامِ الْهِدَايَةِ فِيهَا لِيَزْدَادَ هُدًى.
- وَأُمُــورٍ هُــوَ مُحْتَـاجٌ إلَى أَنْ يَحْصُــلَ لَـهُ مِنْ الْهِدَايَـةِ فِيهَــا فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِثْلُ مَا حَصَلَ لَهُ فِي الْمَاضِي.
- وَأُمُورٍ هُوَ خَالٍ عَنْ اعْتِقَادٍ فِيهَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى الْهِدَايَةِ فِيهَا.
- وَأُمُورٍ لَمْ يَفْعَلْهَا فَهُـوَ مُحْتَـاجٌ إلَى فِعْلِهَـا عَلَى وَجْـهِ الْهِدَايَـةِ، إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَاجَاتِ، إلَى أَنْوَاعِ الْهِدَايَاتِ، -لما كان كــذلك- فُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْأَلَ هَذِهِ الْهِدَايَةَ فِي أَفْضَلِ أَحْوَالِـهِ، وَهِيَ الصَّـلَاةُ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ. أ.هـ

وقال بتصرف: فَإِنَّ الْمُرَادَ بِـهِ -الصـراط المسـتقيم- الْعَمَـلُ بِمَـا أَمَـرَ اللَّهُ بِـهِ وَتَـرْكُ مَـا نَهَى اللَّهُ عَنْـهُ فِي جَمِيـعِ الْأُمُـورِ. وَالْمُـرَادُ: طَلَبُ الْعِلْمِ بِالْحَقِّ وَالْعَمَلُ بِهِ جَمِيعًا.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**﴾. أي: يَعْلَمُونَ مَا فِيهِ وَيَعْمَلُونَ بِـهِ، وقَوْلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَـدَانَا لِهَـذَا**﴾ وَإِنَّمَـا هَـدَاهُمْ بِأَنْ أَلْهَمَهُمْ الْعِلْمَ النَّافِعَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ. أ.هـ

أقول لكل مسلم يقرأ هذه الرسالة: أنظر يومًا من أيام حياتك في الدنيا، وأنظر في صلواتك، وفي المواقف والتعاملات والأحتكاكات مع الأهل ومع الجيران ومع الزملاء ومع الأسواق والأعمال، وأعلم أنك في كل موقف مـأمور بأشـياء ومنهيٌّ عن أشـياء وجوبًـا ونـدبًا وتحريمًـا وكراهـةً، فهـل تعرفهـا؟! وإن كنت تعرفهـا فهـل عملت بهـا؟! فـإن كنت تعرفهـا كلهـا وعملت بهـا كلهـا فقـد هُـديت إلى الصراط المستقيم، وإن كنت لا تعرفها فقـد دخلت نـوع دخـول أو دخولاً جزئيًا تحت وصـف المحظـور الثـاني ﴿**الضَّالِّينَ**﴾ وإن كنت تعرفهـا ولم تعمـل بهـا دخلت نـوع دخـول، أو دخـولاً جزئيًـا تحت وصف المحظور الأول ﴿**المَغضُوبِ عَلَيهِمْ**﴾.

فأكبر نعمة أن تُهدى الصـراط المسـتقيم في كـل حياتـك اعتقـادًا وعملاً ظاهرًا وباطنًا، وهو صراط المغايرين للمغضــوب عليهم من اليهود وأمثالهم، وللضالين من النصارى وأمثالهم.

لكن للأسف الشديد فقد خرج في الأمة فرقة الْقَدَرِيَّة الْنُّفَاة الذين يزعمون أن العبد لا يفتقر في حصول هذا الأهتداء إلى الله، بل كل عبد عندهم معه ما يحصل به الأهتداء، ولا فرق عندهم بين المؤمن والكافر، ولم يخص الله المؤمن (عندهم) بهدي حصل به الأهتداء.
ولئن سألتهم لِمَ فرض الله علينا هذا الدعاء المتكرر عشرات المرات يوميًا؟ قالوا لك: زدنا هدىً، أو ثبتنا على الهدى، ونحو ذلك، وهم ما زعموا ذلك إلا لعدم تصورهم الصراط المستقيم المطلوب الهداية إليه، وقد بيّنّا معناه بحمد الله لكنهم في منأى عن ذلك.
وتسبب الضالون هؤلاء في أن عامة الأمة الآن يتلون هذا الدعاء العظيم وقلوبهم غافلة لاهيةً عن معناه، تمامًا كما فعلوا بهم في قوله **وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** وبحمد الله وتوفيه تم بيان ذلك. أما عند الأحتجاج عليهم فيكفي قوله تعالى في سورة الكهف **مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا**.
قال ابن تيمية في منهاج السنة: فدَّل على أن كل من هداه الله اهتدى ولو هدى الكافر كما هدى المؤمن لأهتدى.
وقال رحمه الله: وَهَذَا الِاهْتِدَاءُ لَا يَحْصُلُ إلَّا بِهُدَى اللَّهِ **مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي**.أ.هـ
وقوله**وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا* ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ عَلِيمًا**النساء.
نعمة الله على الكفار نعمةٌ مقيدة، فإن استجابوا لها وشكروها وآمنوا دخلوا في الإنعام المطلق.
قال ابن تيمية: والإنعام المطلق إنما يدخل فيه المؤمنون، فدَّل ذلك على أن الطاعة الحاصلة من المؤمنين هو الذي أنعم بها، ولو كانت نعمته عليهم كنعمته على الكفار لكان الجميع من المنعم عليهم أهل الصراط المستقيم. أ.هـ

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ

هم المذكورون في الآية السابقة **الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ** وذكر سبحانه أنه فاعل النعمة، وحذف فاعل الغضب في قوله تعالى **المَغضُوبِ عَلَيهِمْ** وأضاف الضلال إليهم في قوله **وَلاَ الضَّالِّينَ** فَذِكْرُ فاعل النعمة مُناسب للتحميد والثناء والتمجيد في أول السورة.

قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: أما الشَّرَّ لَمْ يُضَفْ إلَى اللَّهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إلَّا عَلَى أَحَدِ وُجُوهٍ ثَلَاثَةٍ:

- إمَّا بِطَرِيقِ الْعُمُومِ، كَقَوْلِهِ ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾.
- وَإِمَّا بِطَرِيقَةِ إضَافَتِهِ إلَى السَّبَبِ كَقَوْلِهِ ﴿**مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**﴾.
-وَإِمَّا أَنْ يُحْذَفَ فَاعِلُهُ كَقَوْلِ الْجِنِّ ﴿**وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا**﴾ وَقَدْ جَمَعَ فِي الْفَاتِحَةِ "الْأَصْنَافَ الثَّلَاثَةَ" فَقَالَ:

﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ وَهَذَا عَامٌّ.

وَقَالَ ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ فَحَذَفَ فَاعِلَ الْغَضَبِ.

وَقَالَ ﴿**وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ فَأَضَافَ الضَّلَالَ إلَى الْمَخْلُوقِ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الْخَلِيلِ -عليه السلام- ﴿**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾الشعراء. وَقَوْلُ الْخَضِرِ ﴿**فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا**﴾الكهف. وقال ﴿**فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا**﴾الكهف. وقال ﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا**﴾الكهف. أ.هـ

معنى: (المَغضُوبِ عَلَيهِمْ الضَّالِّينَ):-

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «اليَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضُلَّالٌ»[33].

قال ابن تيمية: الْيَهُودَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ وَالنَّصَارَى عَبَدُوا اللَّهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ.

وقال: فالضال الذي لم يعرف الحق كالنصارى، والمغضوب عليه: الغاوي الذي يعرف الحق ويعمل بخلافة كاليهود.

وقال: لِأَنَّ الْيَهُودَ: يَعْرِفُونَ الْحَقَّ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَلَا يَتْبَعُونَهُ لِمَا فِيهِمْ مِنْ الْكِبْرِ وَالْحَسَدِ الَّذِي يُوجِبُ بُغْضَ الْحَقِّ وَمُعَادَاتَهُ. وَالنَّصَارَى: لَهُمْ عِبَادَةٌ وَفِي قُلُوبِهِمْ رَأْفَةٌ وَرَحْمَةٌ وَرَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا لَكِنْ بِلَا عِلْمٍ فَهُمْ ضُلَّالٌ.

وقال: فَمَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ وَذَوْقَهُ وَوَجْدَهُ, مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهُوَ مِنْ ﴿**الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ وَإِنْ كَانَ لا يعلم ذلك فَذَلِكَ ﴿**مِنْ الضَّالِّين**﴾.

وقال: قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: كَانُوا يَقُولُونَ: مَنْ فَسَدَ مِنْ الْعُلَمَاءِ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ الْيَهُودِ، وَمَنْ فَسَدَ مِنْ الْعُبَّادِ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ النَّصَارَى، وَكَانَ السَّلَفُ يَقُولُونَ: احْذَرُوا فِتْنَةَ الْعَالِمِ الْفَاجِرِ، وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ؛ فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ.

[33] **رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (8202).**

فَطَالِبُ الْعِلْمِ إنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِطَلَبِهِ فِعْلُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ، وَتَرْكُ مَا يَحْرُمُ عَلَيْهِ مِنْ الِاعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَإِلَّا وَقَعَ فِي الضَّلَالِ.

وقال: وَكَانَ السَّلَفُ يَرَوْنَ أَنَّ مَنْ انْحَرَفَ مِنْ الْعُلَمَاءِ عَنْ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ: فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ الْيَهُودِ، وَمَنْ انْحَرَفَ مِنْ الْعُبَّادِ: فَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ النَّصَارَى كَمَا يُرَى فِي أَحْوَالِ مُنْحَرِفَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ: مِنْ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَقَسْوَةِ الْقُلُوبِ، وَالْبُخْلِ بِالْعِلْمِ، وَالْكِبْرِ، وَأَمْرِ النَّاسِ بِالْبِرِّ وَنِسْيَانِ أَنْفُسِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَكَمَا يُرَى فِي مُنْحَرِفَةِ أَهْلِ الْعِبَادَةِ وَالْأَحْوَالِ مِنْ الْغُلُوِّ فِي الْأَنْبِيَاءِ الصَّالِحِينَ وَالِابْتِدَاعِ فِي الْعِبَادَاتِ والرهبانية وَالصُّوَرِ وَالْأَصْوَاتِ. أ.هـ

قلت: فكيف لو رأى منحرفة أهل العلم في زماننا الذين آتاهم الله من العلم فانسَلَخَوا منه فصَّح فيهم قوله تعالى ﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث**﴾. لقد رأيتُ وسمعتُ أحدهم في الفضائيات يُدافع عن زوجة كاسية عارية، وينهى زوجها عن أن ينهرها، بل عن أن يأمرها -ويقول: حاشاها، ولا يرى للزوج إلا أن ينصح فقط- وهذا تشجيع على الدياثة، ويستدل لذلك بقوله ﴿**وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا**﴾طه. ويُنزل الضمير في ﴿**عَلَيْهَا**﴾ على المرأة مخالفًا لأبسط القواعد من أن الضمير يعود لأقرب مذكور، فقال قولاً شنيعًا لم يُسبق إليه من داعرٍ آخر، وهذا الإنسان أستاذ في الفقه المقارن.

وقال شيخ الإسلام: وَلَفْظُ "الضَّلَالِ" إذَا أُطْلِقَ تَنَاوَلَ مَنْ ضَلَّ عَنْ الْهُدَى سَوَاءٌ كَانَ عَمْدًا أَوْ جَهْلًا، وَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ مُعَذَّبًا كَقَوْلِهِ ﴿**إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ* فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ**﴾الصافات. وَقَوْلِهِ ﴿**رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا**﴾الأحزاب. وَقَوْلِهِ ﴿**فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى**﴾طه. ثُمَّ قَدْ يُقْرَنُ بِالْغَيِّ وَالْغَضَبِ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**﴾النجم. وَفِي قَوْلِهِ ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ وَقَوْلِهِ ﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ**﴾القمر. وَكَذَلِكَ لَفْظُ "الْغَيِّ" إذَا أُطْلِقَ تَنَاوَلَ كُلَّ مَعْصِيَةٍ لِلَّهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ عَنْ الشَّيْطَانِ ﴿**وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ ﴿**إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾الحجر. وَقَدْ يُقْرَنُ بِالضَّلَالِ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**﴾.أ.هـ

فهذه مجموعة أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية لم تترك لنا مقالاً في الآيات ولا تحتاج لشرحٍ أو تفضيل.

والعبد يُخشى عليه الإنحراف إلى طريق الضلال أو إلى طريق الغضب، وقد وقع الشرك في الأمة، وأنتشر، وذهبت الأمة كل مذهب.
قال شيخ الإسلام: وَلَمَّا أَمَرَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ: أَنْ نَسْأَلَهُ فِي كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ يَهْدِيَنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ ﴿**الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**﴾ الْمُغَايِرِينَ لِلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلِلضَّالِّينَ: كَانَ ذَلِكَ مَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْعَبْدَ يُخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْحَرِفَ إلَى هَذَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم حَيْثُ قَالَ:" لَتَسْلُكُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ. قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟"[34].وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ. أ.هـ
نختم ببيان أن هذا الدعاء في الفاتحة يشمل كل خيري الدنيا والآخرة، أما الآخرة فلا يحتاج إلى بيان، والمرور على الصراط المنصوب على جهنم يكون بحسب هداية العبد إلى الصراط المستقيم في الدنيا.
وأما في الدنيا فإن حاجة الإنسان الأساسية في الدنيا ثلاثة: الهدى، والرزق، والنصر؛ والرزق: هو جلب المنفعة، والنصر: هو دفع المضرة، وبدون الهدى ليس للإنسان إلا المعيشة الضنك. وفي الهداية للصراط المستقيم ضمان الرزق الحلال والنصر بالحق.
قال شيخ الإسلام:
فَحَاجَةُ الْعَبْدِ إلَى سُؤَالِ هَذِهِ الْهِدَايَةِ ضَرُورِيَّةٌ فِي سَعَادَتِهِ وَنَجَاتِهِ وَفَلَاحِهِ؛ بِخِلَافِ حَاجَتِهِ إلَى الرِّزْقِ وَالنَّصْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ فَإِذَا انْقَطَعَ رِزْقُهُ مَاتَ، وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ مِنْهُ، فَإِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْهُدَى بِهِ كَانَ سَعِيدًا قَبْلَ الْمَوْتِ وَبَعْدَهُ وَكَانَ الْمَوْتُ مُوَصِّلًا إلَى السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ، وَكَذَلِكَ النَّصْرُ: إذَا قُدِّرَ أَنَّهُ غُلِبَ حَتَّى قُتِلَ فَإِنَّهُ يَمُوتُ شَهِيدًا، وَكَانَ الْقَتْلُ مِنْ تَمَامِ النِّعْمَةِ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْحَاجَةَ إلَى الْهُدَى أَعْظَمُ مِنْ الْحَاجَةِ إلَى النَّصْرِ وَالرِّزْقِ؛ بَلْ لَا نِسْبَةَ بَيْنَهُمَا؛ لِأَنَّهُ إذَا هُدِيَ كَانَ مِنْ الْمُتَّقِينَ ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا*وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**﴾الطلاق. وَكَانَ مِمَّنْ يَنْصُرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ نَصَرَ اللَّهَ نَصَرَهُ اللَّهُ، وَكَانَ مِنْ جُنْدِ اللَّهِ، وَهُمْ الْغَالِبُونَ؛ وَلِهَذَا كَانَ هَذَا الدُّعَاءُ هُوَ الْمَفْرُوضُ.

[34] **رواه أحمد وابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (5063).**

وَ"أَيْضًا" فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ الرِّزْقَ وَالنَّصْـرَ؛ لِأَنَّهُ إِذَا هُـدِيَ ثُمَّ أَمَـرَ وَهَـدَى غَيْرَهُ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَرُؤْيَتِهِ فَالْهُدَى التَّامُّ أَعْظَمُ مَا يَحْصُلُ بِهِ الــرِّزْقُ وَالنَّصْرُ، فَتَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا الدُّعَاءَ جَامِعٌ لِكُـلِّ مَطْلُـوبٍ، وَهَـذَا مِمَّا يُبَيِّنُ لَك أَنَّ غَيْـرَ الْفَاتِحَـةِ لَا يَقُـومُ مَقَامَهَـا وَأَنَّ فَضْـلَهَا عَلَى غَيْرِهَـا مِنْ الْكَلَامِ أَعْظَمُ مِنْ فَضْــلِ الرُّكُــوعِ وَالسُّــجُودِ عَلَى سَــائِرِ أَفْعَــالِ الْخُضُوعِ، فَإِذَا تَعَيَّنَتْ الْأَفْعَالُ فَهَذَا الْقَوْلُ أَوْلَى وَاَللَّهُ أَعْلَمُ. وَصَــلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا. أ.هـ